الباب الأول

البلاغة والدعوة

- الدعوة .. والداعية
- طبيعة الدعوة الاسلامية
- البلاغة وصلتها بالدعوة

الفصل الأول

الدعوة والداعية

ان التحولات الانسانية العظيمة ، والتى تمثل فى حياة البشرية تغييرا جذريا ، وبعثا جديدا ، وانطلاقا الى آفاق رحبة مشرقة ، وخروجا من أنماط حياتها المتوارثة العتيقة ، التى تكبل مسيرتها وتسد أمامها منافذ النور والخير ، ان هذه التحولات لابد لها أن تبدأ من نقطة انطلاق أساسية هى : تغيير النفوس ، واصلاح السرائر ، وتزكية الضمائر واحياء القلوب ، وايقاظ العقول ، وبعث روح جديد يوقظ كل ما أودعه الله فى النفس البشرية من طاقات خلاقة ، وملكات مبدعة وقوى كامنة ، لتهب من سباتها ، وتنهض من كبوتها ، وتبنى ما شاء الله لها أن تبنى من صروح الحضارة ، ومعالم التقدم فى حياتها الروحية والمادية • **« سنة الله فى الذين خلوا من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا »** (١) وصدق الله العظيم حيث يقول : **« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم »** (٢) •

وقد يبدو للنظرة الأولى أن ما يعتور الحضارات من تغيير هو وليد تحولات سياسية ضخمة ، كغزو الأمم ، وسقوط الممالك ، غير أن البحث الدقيق يدل على أن ذلك كان نتيجة لتطور عميق فى أفكار الأمم ، وتغير فى الآراء والمبادىء والمعتقدات ومشاعر الناس • كما يدل على أن التغيير الهام الذى تتجدد به الحضارة هو ما يتم فى ضمائر الناس ومشاعرها وأفكارها والذى يؤدى الى تغيير روح الأمم • وذلك وحده هو المحرك الحقيقى وراء كل ذلك (٣) •

ومن هنا يأتى دور الدعوة ، وتبدو أهميتها ، وتتبين الحاجة اليها • ومن هنا أيضا تتحدد سماتها ، وتتضح معالمها ، وتبرز عناصرها •

---

(١) الأحزاب : ٦٢ • (٢) الرعد : ١١ •

(٣) انظر روح الجماعات • جوستاف لبون • طبعة دار المعارف ١٩٥٥ ص ١٢ وما بعدها •

ذلك أن الدعوة تعنى : محاولة الداعى استمالة الناس نحو هدف معين واقناعهم به اقناعا تطمئن اليه عقولهم ، وترضى عنه قلوبهم ، وتنشرح له صدورهم ، ويخالط وجدانهم ، ويسرى فى مشاعرهم ، ويمتزج بكيانهم ، ويصبح ايمانا راسخا ، كى يتهيأ لهذا الايمان أن يكون محركا لكل ما يصدر عنهم من فكر وعاطفة وسلوك ، به يؤمنون ، وبتوجيهه يعملون ، وفى سبيله يبذلون وعنه ينافحون ، ومن أجله يستشهدون ٠

★★★

عناصر الدعوة

نحن اذن أمام ثلاثة عناصر لابد منها لتتحقق الدعوة وتؤتى أكلها :

الأول : هدف ، هو لب الدعوة وجوهرها ، كما أنه نقطة البدء والنهاية فيها ٠

الثانى : داعية ، وهو رائد أهلته صفاته المتميزة وملكاته الخاصة لحمل اللواء وقيادة الجموع ، رائد تخطى ما عليه الناس من مواضعات ، واستشف ـ من خلال ما يحيط به من زيف وباطل ـ نور الحقيقة ورأى هدفه هناك يناديه ويلح عليه ويملأ كيانه ويمتزج بكل جوارحه وتنفعل به أحاسيسه، فيعيش به وله ، ولا يملك أن يحول عنه وجهه أو يصم عن ندائه المدوى فى أعماقه أذنيه ، ولا يستطيع ـ حتى لو أراد ـ أن يستأثر به دون الناس ، أو يطوى عليه صدره ، ويحبس صوته ٠ فاذا هو مجاهر بما يجد فى نفسه ، صادع بما يعتمل فى أعماقه داع الناس اليه ، صامد لكل ما يواجهه ، صابر على ما يصيبه ، مضح بكل ما يملك فى سبيله ٠

الثالث : مدعوون الى الهدف ، تعرض عليهم الدعوة ، وتشرح لهم مبادئها وتجلى آفاقها ومعالمها ، وتوضح دوافعها وأسبابها ، ويبدد كل ما يثور حولها من اعتراضات ، وما تواجه به من رفض ٠

وذلك اجمال لابد له من تفصيل ٠

● **أولا ـ الهدف :**

ان الدعوة ـ سواء أكانت سماوية أم بشرية ـ لابد أن تنهض على أسس فكرية ودعائم فلسفية ، تكون هى الاطار الذى يتحرك الداعية فى نطاقه ويقيم

دعوته عليه · فمن المستحيل أن يتحرك الانسان خطوة فى هذا السبيل دون أن يكون وراءها دافع معنوى يقود خطاه ، ويوجه نشاطه ، ويضفى طابعه الخاص على كل ما يصدر عنه ، ويبعث فى نفسه طاقة ايجابية توجه سلوكه ، وتمده بزاد روحى يعينه على مواصلة الخطى ليقترب شيئا فشيئا من تحقيق هدفه والوصول الى غايته ·

والواقع أن الأفكار هى نقطة البداية فى كل نهضة وأساس كل تغيير انسانى فهى التى تعطى الحضارة الوليدة لونها المميز وسماتها الخاصة · والتاريخ الانسانى فى جوهره ما هو الا تسجيل لآثر انتقال الأفكار من شخص الى آخر أو هجرتها من بيئة الى أخرى كى تحدث أثرها فى البيئة الجديدة ·

يقول جلبرت هايت « ان أسلم طريقة لتسجيل التاريخ هى تتبع الأفكار فى هجرتها ، حيث تتفاعل وتنشىء حضارة تتسم بطابعها ، وتصطبغ بصبغتها » ·

ثم يأخذ فى التدليل على نظريته تلك ، بتحليل الحضارات وردها الى الأفكار الأساسية التى قامت عليها ، عارضا نماذج كثيرة تدل على صدق نظريته كتأثر الحضارة الأوروبية بالأفكار التى حملها العرب معهم الى الأندلس ، وأن هذه الحضارة ما هى الا ثمرة للفكر العربى ··· الى آخر ما يورده فى هذا المقام (١) ·

وليست كل فكرة تؤدى الى تغيير انسانى · فكم من الأفكار قد وئدت فى مهدها دون أن تترك بصمة واحدة تدل عليها · وكم من الأفكار هبت كالزوبعة المفاجئة التى تحدث من اختلال فى الضغط الجوى ثم لم تابث أن تبدد شملها ، وذهب ريحها ، واضحت أثرا بعد عين · وكم من الأفكار لم يكن لها من القوة الذاتية ما يضمن لها الوجود ، ولكن دعاتها قد فرضوها فرضا بقوة التسلط والبطش ، واكرهوا الناس على الحياة فى ظلها ، معتمدين على أيديهم الفولاذية التى تمسك بزمام الأمور ، غير أن تلك الأيدى القابضة سرعان ما تكل وتلين وتفقد صرامتها ، فتنساب الأمور من فرج الأصابع ، وتتفلت منها المقاليد واحدا بعد الآخر ، حتى تكون النهاية المحتومة زلزالا يدمر ما تبقى من رسوم ويأتى على الأخضر واليابس ·

---

(١) انظر هجرة الافكار · تاليف جلبرت هايت · ترجمة أسعد فريد ·

غير أن هناك من الأفكار ما يملك قوة ذاتية غلابة تفرض نفسها على النفوس فتقبلها حتى تتحول الى ايمان يصل من القلوب الى الشغاف ، وتفرض نفسها على الحياة ، فتصوغها من جديد بسلاحها الذى لا يفل ، وهو ايمان الناس بها ٠

« كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » (١) ٠

هذه الأفكار تكون فى مجموعها نظرية ، أو هدفا ، أو رسالة ودينا ، غير أنه من الواجب أن نلاحظ البون الشاسع بين النظريات البشرية والرسالات السماوية سواء من ناحية نشأة كل منهما أو طبيعته ٠

فالأولى : (فى نشأتها) نتيجة لخلل فى الحياة الانسانية يؤدى الى تناقضات صارخة ، وصراعات عميقة ، تمزق المجتمع ، وتسمم حياته ، وتقوده الى التحلل والانهيار ٠

وهى (فى طبيعتها) اجتهادات شخصية ، وحلول لمشاكل تعانى منها المجتمعات ، قد تنجح فى علاجها أو تفشل ٠ ولذلك كان طبعيا أن تتسم بعدم الشمول وبالمحلية وبالمرحلية ٠ بمعنى أنها تواجه واقعا محددا ، تعالج مشاكله المعينة ، فى نطاق دائرته الخاصة ٠ وبالتالى لا يمكن أن تكون بناء متكاملا يغطى احتياجات الانسان المتنوعة ما بين مادية وروحية ٠ ولكنها تستجيب فقط للدوافع الملحة فى بيئة خاصة ، واذا جاز لها أن تصلح جانبا فان ذلك يكون على حساب جانب آخر ، كما أنها محلية أيضا ، لأن عوامل وجودها محلية ولا حاجة اليها فى مجتمعات لا تعانى من المشاكل التى أوجدتها فى بيئتها الخاصة وفى نفس الوقت لا يمكن لها أن تتسم بالخلود ، بل هى مرحلية مؤقتة اذ من المستحيل أن يقف التطور الانسانى عند حدودها ، بل ان سنة الحياة تسير وتجدد وفق ما ينبت فى ساحتها الخصبة من ضرورات ودواع ، واستقراء التاريخ الانسانى خير شاهد على صحة كل ذلك ٠ وهو ذاخر بمئات المثل التى لا تخفى على باحث ٠

أما الرسالات السماوية : فى نشأتها وطبيعتها ، فهى على العكس من كل ما تقدم ، فهى لا تواجه واقعا محددا ، ولا تتنزل حلولا لتناقضات يعانى منها

---

(١) الرعد : ١٧ ٠

مجتمع · بل انها هداية السـماء للأرض ، وتشريع رب النـاس للنـاس ، وصراطه المستقيم ، وحبله المتين ، وهو الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لأنـه من صـنع الحـق الذى خلق الحياة وخـلق لهـا ما يصلحها ··

« ألا يعـلم من خلق وهو اللطيف الخبير » (١) ·

وسوف يأتى تفصيل ذلك عندما نتعرض لطبيعة الدعوة الاسلامية ··

* * *

● ثانيا ـ الداعية :

تظل الأفكار أو النظريات معانى تجريدية حبيسة فى صدور أصحابها أو مسطرة فى كتبهم حتى تجد داعية اليها ، ينقلها من واقعها التجريدى الى واقع الحياة ، حيث تتحول الى قوة مؤثرة ، بعد أن تتبوأ مكانها فى النفوس فتتغير بها الحياة (٢) ·

فالداعية اذن هو الذى يحمل الدعوة ، بعد أن تملأ عليه كل كيانه العقلى والروحى ، ويعبر بها واقعها النظرى الى التطبيق العملى ، حيث تصـارع الواقع فتعيد صياغته من جديد ، وتحتل كل يوم موقعا تثبت فيه أقدامها لتثب منه الى موقع آخر ، فتصل فى النهاية الى السيطرة الكاملة على الحياة ، وتحقق لذاتها وجودا ملموسا متمثـلا فى قيم جديدة ، وعلاقات جـديدة ، وحضارة جديدة ·

ومن هنا كانت مهمة الداعية بالغة التعقيد ، تحتاج الى نوع فريد من البشر يملك طاقات لا تنفد من العزيمة والجلد ، ويتمتع بملكات روحية وعقلية تجعله أهـلا لأداء الرسالة ·

---

(١) الملك : ١٤ ·

(٢) يقول الأستاذ البهى الخولى فى كتابه « تذكرة الدعاء » :

« لقد ظلت النازية مثـلا فلسفة باردة تقرأ فى الكتب وتدرس فى الجامعات ، حتى تلقفها وجدان هتلر فغلى بها وفار ، ونهض ينادى فى حماسة وثقة وقوة ، حتى أخذت قلوب الشعب تتهيأ لرسالة هذا الزعيم الجديد ، وتنتقل بالتدريج الى ما يشاء · وساعدته ظروف الزمـان والمكان حتى صارت النازية عقيدة راسخة يقاتل الشعب فى سبيلها ، برغم ما فيها من حماقة وسخافة » ص ٣٣ ·

ومن دراسة نماذج الدعـاة الناجحين وأصـحاب الرسـالات يورد الباحثون فى علم النفس والاجتماع الكثير مما يمتازون به · وما يجب أن يتوفر لهم من خصائص· غير أن المثل الأعلى للداعية من غير شك ،هم رسل الله الذين اصطفاهم لتبليغ رسالاته ، لما علمه فيهم من عظمة تتناسب مع جلال المهمة وثقل التبعة ، فان العظائم كفؤها العظمـاء ·· « **الله أعلم حيث يجعل رسالته** » (١) ·

وأول خصائص الداعية : أنه مؤمن بفكرة تأخذ عليه أقطار نفسه وتملأ كيانه ، فيبدو وكأن قوة سحرية توجه حركته ، فلا يصدر عنه قول أو فعـل الا من وحى فكرته وفى اتجاه هدفه ، فهو يدعو اليها بقوله وسلوكه ، مؤتمرا **بأمرها فى اقدامه واحجامه ، فلا يقبل فيها مساومة ، ولا يطلب عليها أجـرا هتافه دائما :**

« **ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين· لا شريك له ، وبذلك أمـرت** » (٢) ·

وثانيها : أن يكون قادرا على التصرف فى فنون القول بما يمكنه مـن توصيل ما يريد الى المدعوين ، « فلا يكفى أن يعلم ما ينبغى أن يقول بـل يجب أن يقوله كما ينبغى » (٣) · مستعينا بكل ألوان الأساليب :

من حجة عقلية ، ودليل وجدانى ، وأسلوب تصويرى ، وضرب أمثال ، وقصص وترغيب وترهيب ، حتى ينفذ الى عقل المستمع ووجدانه ، ويخاطب فيه كل ملكاته · وقديما أحس سيدنا موسى عليه السلام بحاجة الى ذلك فسأل ربـه قائلا :

« **وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا يصدقنى ، انى أخاف أن يكذبون · قال سنشد عضدك بأخيك** » (٤) ·

فالنص الكريم يؤكد حاجة الداعية الى البيان والفصاحة كسلاح يصاول به المكذبين ووسيلة يصل بها الى قلوب المعاندين · وهو يعلى من قدر البلاغة

---

(١) الأنعام : ١٢٤ ·
(٢) الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣ ·
(٣) أرسطو · الخطابة ص ١٤٠٣ ·
(٤) القصص : ٣٤ ، ٣٥ ·

ريكشف عن قيمتها فى مجال الدعوة · ونظرة الى ما فى النظم الكريم من خصائص تكشف لنا عن كل ذلك وتجليه ·

فموسى عليه السلام وقد كلف بابلاغ الدعوة الى فرعون وقومه يدرك أنه بحاجة الى ما يعينه على أداء مهمته الصعبة ، وأن أول ما يلزمه هو بيان قوى يجادل به الكفار ويبسط به حجته ويزين به الايمان ويستميل به القلوب ، يأنس ذلك فى أخيه هارون ، فيتوجه الى ربه داعيا أن يعينه بأخيه « **وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا** » والردء اسم ما يعان به (١) · ثم يضيف الى ذلك « **يصدقنى ، انى أخاف أن يكذبون** » فهو يستعين بفصاحة أخيه فى تحقيق تصديق قومه له · ويلاحظ اسناد التصديق الى ضمير هارون · مع أن المقصود تصديق قومه له · بدليل قوله « **انى أخاف أن يكذبون** » لأنه لما كان هارون سببا فى تصديق قومه لفصاحته وقدرته على المحاجة وعرض الدعوة عرضا يصل الى القلوب أسند الفعل اليه على سبيل المجاز العقلى ، وسر العدول عن الاسناد الحقيقى الى الاسناد المجازى بيان أهمية السبب فى تحقيق التصديق واشارة واضحة الى قيمة البلاغة وقوة البيان فى نجاح الداعية ·

ثم تكون استجابة الله لموسى فى صيغة تؤكد هذا أيضا وتقرره قال : « **سنشد عضدك بأخيك** » فالمعنى سنعينك ونقويك ، ولكن النظم الكريم آثر أسلوب الكناية مبالغة فى الصفة كما هو شأن الكناية دائما اذ هى تصور المعنى وتعرضه مصحوبا بدليله « فاليد تشتد بشدة العضد ، والجملة تقوى بشدة اليد على مزاولة الأمور » (٢) ·

وذلك يضيف تأكيدا لقدر الفصاحة وتنبيها على خطرها · اذ بها تكون هذه القوة المؤكدة ·

ومما يشير الى أهمية تمكن الداعية من اللغة والتصرف فى فنونها قوله تعالى : « **وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم** » **(٣)** ·

فالمراد باللسان هنا اللغة ، ولكن التعبير الكريم آثر استعمال « اللسان » مجازا عن اللغة لأنه أداة النطق وآلته وذلك ليشير الى أهمية

---

(١) الكشاف ص ١٧٦ ج ٣ ·
(٢) الكشاف ص ١٧٦ ج ٣ ·
(٣) ابراهيم : ٤ ·

تمكن الرسول من لغة قومه حتى لكأن السنهم فى فمه بها يعبر وبها يفصح ويبين ٠

ثالثا : أن يكون عالما بروح الجماعة ، وطرق التأثير فيها ، وخصائص تفكيرها ، ونزعاتها النفسية ، وموقفها من الدعوة ، حتى يواجه كل ذلك بما يناسبه ٠

ورابعها : أن يكون فى سيرته وسلوكه قدوة حسنة ، وصورة لما يدعو اليه ، والمثل الأعلى فى ذلك سيدنا رسول ﷺ فقد أوجزت أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ وصف أخلاقه حين سئلت عنها قائلة : « كان خلقه القرآن »٠

وخامسها : اذا كان هدف الداعية الأساسى هو الوصول بالمدعوين الى الايمان بدعوته ، فمن الطبيعى أن من يريد الوصول الى الايمان عن طريق أى لون من ألوان الاكراه فانما يحاول عبثا ، ذلك لأن الايمان بطبيعته يتنافى مع الاكراه ٠ وطالما كان موضوع الدعوة بعيدا عن الهوى والغرض الشخصى وهدفها هو الخير والمثل العليا ، فان أول ما يجب أن يلاحظه الداعية هو أن الحرية الفردية ، وكرامة الفرد من القيم الرفيعة التى يجب أن تتحقق فى حياة الانسان ، عن طريق أية دعوة للاصلاح ، ولنقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

« انما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شىء ، وأمرت أن أكون من المسلمين ٠ وأن أتلوا القرآن ، فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فقل انما أنا من المنذرين » (١) ٠

فالنص الكريم أكد هذا المعنى عندما أشار بجلاء الى حرية الانسان فى اختيار الهدى أو الضلال مادام مستعدا لتحمل نتائج عمله ، ثم عندما بين مهمة الرسول عليه السلام وأنه من المنذرين ، بهذا الأسلوب المؤكد مستخدما القصر بـ « انما » حتى لكأن مهمته مقصورة على الانذار فليس له أن يجبر أحدا على الهدى ٠

وسادسها : أن الداعية أيضا بجانب ايمانه الراسخ بدعوته ، يجب أن يكون على حظ وافر من القدرة على التحمل والصبر ، فلا تحمله المحن على أن يستسلم لأعداء الدعوة ، أو أن تتبدد طاقته استبطاء للنتائج المرجوة ٠

---

(١) النمل : ٩١ ، ٩٢ ٠

ولعل خير ما يشير الى ذلك هـذا الاعـــداد الروحى الخاص الذى أمر الله تعالى سيدنا رسول الله ﷺ أن يأخذ به نفسه منذ بدء الدعـوة فى قوله تعـــالى :

« يا أيها المزمل • قم الليل الا قليلا • نصفه أو انقص منه قليلا • أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا • انا سنلقى عليك قولا ثقيلا • ان ناشئة الليل هى أشد وطئـا وأقوم قيلا • ان لك فى النهار سـبحا طويلا • واذكر اسم ربك وتبتـل اليه تبتيلا • رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا • واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا » (١) •

فمع أن طبيعته الخاصة السامية ـ صلى الله عليه وسلم ـ أهلتـه للرسالة ، يأمره الله تعالى أن يوطـن نفسـه على تحمل المصاعب ومواجهة الخطوب والنهوض بعبء الدعوة الثقيل ، بهذا الاعداد الروحى الذى يمـد الروح بزاد يعينها على الصمود والصبر •

هـذا وما دام الداعية هو فى واقعـه زعيما لأتباعه رائدا لهم ، فهـو بحاجة الى صفات أخرى توفى بحق القيادة ، آثـرنا الا نتعـرض لها حتى لا يبتعد بنا الحديث عن موضوعنا الأساسى ، مثل القدرة على التنظيم وتربية القيادات وايجاد استقطاب حول الدعوة ، الى غير ذلك من الصفات (٢) •

★ ★ ★

● **ثالثا ـ المدعوون :**

الداعية يتوجه بدعوته الى الجماعة يريد استمالتها اليها ، ويحثهم على الايمان بها والانضواء تحت لوائها ، كى يتاح لهذا الايمان أن يقـوم بدوره فى تغيير ما عليه الجماعة من فساد فى العقائد والقيم والسلوك ،

---

(١) المزمل : ١ ـ ١٠ •

(٢) اقرأ فى هذا الموضوع :

ـــ الدعوة الاسلامية فى عهدها المكى • دكتور رؤوف شلبى

ـــ تذكرة الدعاة • الأستاذ البهى الخولى •

ـــ السبيل الى دعوة الحق والقائم بأمرها • دكتور محمد البهى •

ـــ روح الجماعات • دكتور جوستاف ليبون •

ـــ مبادىء تنمية المجتمع • دكتور عبد المنعم شوقى •

ـــ الخطابة • لأرسـطو •

ليبنى على أنقاض ذلك عقيدة صحيحة ، ويغرس قيما فاضلة ، ويقوم سلوكا معوجا ، فيصل فى نهاية الأمر الى بناء حضارى جديد يحقق بـه دعـوته فى الواقـع الملموس · « ذلك لأن العقيدة الجـديدة اذا ما رسخت فى روح الجماعات أوحت الى هذه الروح بنظمها وفنونها وسلوكها ، وهناك يغـدو سلطان العقيدة على النفس مطلقا ، فيفكر رجال العمل فى تحقيقها ، ويفـكر المشرعون فى تطبيقها ، ويفكر الفلاسفة والمقننون والأدباء فى التعبير عنهـا بمختلف الوجوه » (١) ·

لكن تعامل الداعية مع الجماعة يجعل مهمته غاية فى الصعوبة والعسر لأن للجماعات خصائصها النفسية التى تجعلها متميزة فى طريقة تفـكيرها وشعورها وسلوكها عن الطريق التى يسلكها كل فرد فيها لو كان منفردا عنها ·

لهذا كان من الضرورى للداعية أن يكون عالما بخصائص الجماعات ، وطرق التأثير فيها ، والوصول الى اقناعها ، ليتمكن من الوصول الى غايته المأمولة ، وسنشير فى هذا المقام الى أهم ما توصل اليه الدارسون لخصائص الجماعات وطرق التأثير فيها ، لنصل الى هدفين هما :

أولا : أن يكون ذلك عونا للدعاة الذين يقفون حياتهم على هذه المهمة الجليـلة ·

ثانيا : لنثبت أن أسلوب القرآن الكريم هو ذروة ما يتطلع اليه المصلحون والدعاة فى التعامل مع الجماعات وتغييرها ·

* * *

خصائص الجماعات

● **الوحدة النفسية للجماعة :**

ولا يقصد بالجماعات مجرد اجتماع عدد من الأفراد عرضا فى مكان واحد بـل لابـد أن بينهم شىء يمتد أثـره اليهم جميعـا : كخضوعهم لبعض المثيرات القوية كحادث قومى ، أو انتمائهم الى طائفة أو فرقة معينة أو طبقـة خاصة ، مما يؤلف بين أفرادها وحدة نفسية تربط بينهم ·

---

(١) روح الجماعات · جوستاف لبيون ص ١٣٢ ·

هذه الجماعة متى وجدت اكتسبت صفات جديدة مختلفة أشد الاختلاف عن صفات كل فرد فيها · اذ تتجه أفكار كل واحد من أولئك الأفراد صوب اتجاه واحد ، تجعلهم يفكرون ويشعرون ويسيرون على وجه يخالف ما يشعر به ويفكر فيه ويسير عليه كل واحد منهم وهو منفرد ·

ويمكن أن نرجع ظهور صفات خاصة بالجماعة الى أسباب مختلفة ·

أولا : أن الفرد يكتسب فى الجماعة بفعل العدد شعورا بقدرة لا تقهر فبينما الفرد وحده يردع غرائزه ويخضعها لارادته ، لشعوره بالمسئولية ، اذا هو وسط الجماعة يذعن لغرائزه طوعا ، نظرا لزوال الشعور بالمسئولية ما دامت الجماعة غفلا ، ومن ثم غير مسئولة ·

ثانيا : العدوى النفسية فالفرد فى الجماعة تسرى اليه بالعدوى المشاعر الجماعية بطريقة لم يتوصل الى تفسيرها ، وان كانت موجودة وتسهل ملاحظتها وانتقال شعور الجماعة الى الفرد بالعدوى يسهل للفرد أن يضحى بمصلحته الشخصية فى سبيل الجماعة العامة ، وهذا استعداد مخالف لطبيعة الفرد لا يقدر عليه الانسان الا اذا كان جزءا من جماعة ·

ثالثا : قابلية الانسان للتلقين · فمما هو معلوم أن الانسان يمكن وضعه فى حال يفقد فيها ذاته الشاعرة ، فينقاد لتلقينات الفاعل الذى افقده اياها ويقترف ــ وهو فى حالته تلك ــ أشد الأعمال مخالفة لطبيعته وعاداته ولعل ذروة ذلك يتم فى « التنويم المغناطيسى » ، حيث تستولى ارادة المنوم على وسيطه ، فالشخص فى الجماعة يكون فى حالة قريبة الشبه بذلك وحين تزول ملكات الفرد الشاعرة تنشط ملكاته غير الشاعرة ، فيندفع بفعل التلقين الى أشد الأعمال بعدا عن طبيعته فيقدم الجبان ، ويسخو البخيل ، ويثور الحليم ، وباختصار ، لا يصبح الفرد كما كان بل يصير آلة تعجز ارادته عن قيادتها ·

وقد أقر القرآن الكريم هذه الحقيقة العلمية ودعا الى وضعها فى الاعتبار عند مباشرة الدعوة وذلك فى قوله تعالى :

« قل انما أعظكم بواحدة ، أن تقوموا الله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ، ما بصاحبكم من جنة ، ان هو الا نذير لكم بين يدى عذاب شديد » (١)

---

(١) سبأ : ٤٦ ·

قال صاحب الكشاف فى تفسير الآية الكريمة بعد أن شرح مفرداتها ، « والمعنى : انما أعظكم بواحدة ان فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم ، وهى أن تقوموا لوجه الله خالصا متفرقين اثنين اثنين وواحدا واحدا • ثم تتفكروا فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به • أما الاثنان فيتفكران ويعرض كل منهما محصول فكره على صاحبه ، وينظران فيه نظر متصادقين متناصفين، لا يميل بهما اتباع هوى ، ولا ينبض لهما عرق عصبية ، حتى يهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح على جادة الحق وسنته • وكذلك الفرد يفكر فى نفسه بعدل ونصفة من غير أن يكابر ، ويعرض فكره على عقله وذهنه ، وما استقر عنده من عادات العقلاء ومجارى أحوالهم » ثم يقول : « والذى أوجب تفرقهم مثنى وفرادى أن الاجتماع مما يشوش الخواطر ، ويعمى البصائر ، ويمنع من الروية ، ويخلط العقول ، ومع ذلك يقل الانصاف ، ويكثر الاعتساف ، ويثور عجاج الغضب ولا يسمع الا نصرة المذهب » (١) •

فما ذكره صاحب الكشاف من تعليل لطلب التفكير بعيدا عن الجماعة هو ما يقوله علماء النفس والاجتماع من سيطرة روح الجماعة على الأفراد ، سيطرة لا تترك لهم حرية التفكير بعيدا عن التأثر بها (٢) •

ولعل ذلك أيضا يفسر لنا الطريقة التى أسلم بها كثير من الأفراد ممن كانوا يبدون أعنف المقاومة للدعوة طالما ظلوا مرتبطين بالجماعة ، حتى اذا أتيح لأحدهم أن يخلو الى نفسه ، وعرضت عليه الدعوة فى ظروف خاصة يتخلص خلالها من تأثير الجماعة ، نراه يسرع الى الاستجابة لها ، وينتقل طواعية الى صفوف المؤمنين •

من ذلك ما روى عن سبب اسلام سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه • وملخصها : أن عمر خرج متوشحا سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطا من أصحابه قد اجتمعوا فى بيت عند الصفا ، وهم قريب من أربعين بين رجال ونساء ، وفى الطريق لقيه نعيم بن عبد الله فسأله عن وجهته فأخبره بغرضه ، فحذره بنى عبد مناف ، ودعاه أن يرجع الى بعض أهله : ختنه (٣) سعيد

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٢٩٤ •

(٢) انظر فى هذا : روح الجماعات ص ٢٨ وما بعدها • فصل : الخصائص النفسية للجماعات •

(٣) الختن بالتحريك : الصهر أو كل من كان من قبل المرأة كالاب والاخ والمراد هنا زوج أخته • القاموس المحيط ص ٢٢٠ جـ ٤ طبعة الحلبى ١٩٥٢ •

ابن زيد بن عمرو ، وأخته فاطمة بنت الخطاب زوج سعيد فقد صبأ عن دينهما ٠

فذهب اليهما عمر مغيظا محنقا وهناك سمع خبابا يتلو عليهما القرآن فاقتحم الباب ، وبطش بختنه سعيد ، وشج أخته فاطمة ، ثم أخذ الصحيفة بعد حوار ، وفيها سورة طه ، فلما قرأ صدرا منها قال :

« ما أحسن هذا الكلام وأكرمه » ٠ ثم ذهب الى النبى ﷺ فأعلن اسلامه ٠ فكبر المسلمون تكبيرة عرف أهل البيت من أصحابه أن عمر قد أسلم ٠

هكذا عندما واجه عمر رضى الله عنه نفسه ، بعيدا عن تأثير الجماعة انقاد لطبيعته الخاصة ، فى لحظة صدق بعيدا عن المؤثرات ٠

وما من شك فى أن تأثير القرآن الكريم هو العامل الحاسم فى اسلام عمر ، ولكننا نذكر القصة من زاوية دلالتها فقط على قوة تأثير الجماعة على الفرد اذ من المستبعد أن تكون هذه هى المرة الأولى التى يستمع فيها عمر رضى الله عنه الى القرآن الكريم ٠

ولعل الحادثة التالية أوضح دلالة على ما نحن بصدده من تأثير الجماعة ، فصاحبها اتخذ موقفا من الدعوة وكادت تصل الى أعماقه ويستسلم لها عندما احتكم الى طبيعته الخاصة ، ولكنه لحظة العاثر قدر له أن يضع نفسه مرة أخرى فى غمار الجماعة ويقع تحت تأثيرها ، ذلكم هو الوليد ابن المغيرة فقد روت كتب السيرة أن النبى ﷺ قام فى المسجد يصلى ، والوليد قريب منه يسمع قراءته ، فلما فطن النبى ﷺ لاستماعه ، أعاد قراءة الآية ٠ فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بنى مخزوم فقال : « والله لقد سمعت من محمد ﷺ آنفا كلاما ، ما هو من كلام الانس ، ولا من كلام الجن ٠٠ والله ان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان أعلاه لمثمر ، وان أسفله لمغدق وانه يعلو ولا يعلى عليه » ٠ ثم انصرف الى منزله ٠ فقالت قريش : صبأ والله الوليد ، ولتصبأن قريش كلها ٠ فأوفدوا اليه أبا جهل يحتال لصرفه عن الاسلام ان كان قد نوى الدخول فيه ، ومازال به حتى قام معه الى مجلس قومه ، فقال لهم : تزعمون أن محمدا ﷺ مجنون ، فهل رأيتموه يحنق قط ؟ تزعمون أنه كاهن ، فهل رأيتموه قط يتكهن ؟ تزعمون أنه شاعر وما فيكم أعلم بالشعر منى ، فهل رأيتموه ينطق بالشعر قط ؟ تزعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه كذبا ؟ ٠ يسألهم ويجيبونه : كلا ، فى كل سؤال ٠

حتى أعيـاهم أن يردوا كلامه · فقال أبو جهل : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه فقال : دعنى حتى أتفكر · ثم قال « ما هو الا سحر يؤثر ، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهـله وولده ومواليه ؟ فهو ساحر وهذا هو السحر المبين » فنزل قوله تعـالى :

« ذرنى ومن خلقت وحيدا · وجعلت له مالا ممدودا · وبنين شهودا · ومهدت له تمهيدا · ثم يطمع أن أزيد · كلا انه كان لآياتنا عنيدا · سـأرهقه صعودا · انه فكر وقدر · فقتل كيف قدر · ثم قتل كيف قدر · ثم نظر · ثم عبس وبسر · ثم أدبر واستكبر · فقال ان هذا الا سحر يؤثر » (١) ·

فهاهو ذا التعبير القرآنى يصور مغالبة الوليد لطبيعته ، التى استجابت للحق ، ومحاولته أن يطمس نور القرآن الكريم ، الذى نفذ الى صدره ، حين استقبله متجردا من المشاعر التى يؤججها ارتباطه بالجماعة وتأثره بهـا · فينكص على عقبيه ، بعد أن استسلم لتيار الجماعة ، وأغرق نفسه فى لجـة مشاعرها المتلاطمة ·

فلنتابع الآن دراستنا للجماعات ، مادام تأثيرها بهذه المثابة من القوة الغلابة ··

● **مشاعر الجماعة وتعقلها :**

يقول جوستاف ليبون :

« الجماعة تسير بتأثير النخاع أكثر من تأثير الدماغ » (٢) ·

وذلك راجع الى ما قدمناه من الصفات النفسية للجماعة ، والتى أثبت القرآن الكريم صحتها · وهى أن الفرد اذا انخرط فى جماعة تلاشت ملكاته الشاعرة ، ونشطت ملكاته غير الشاعرة ، فيندفع بفعل التلقين والاستهواء الى أشد الأعمال بعدا عن طبيعته الخاصة ·

---

(١) المدثر : ١١ ـ ٢٤ · (٢) روح الجماعات ص ٣٨ ·

فعندما يتعرض الفرد لما يثير مشاعره ، فانه يستطيع ، وهو بعيد عن الجماعة أن يزن الأمور بعقله ، ويدرك ما سيترتب على اندفاعه من أخطار ، فيكبح جماح مشاعره ، ولا يسمح لها بأن تقوده الى ما يعرضه للأذى · أما في الجماعة فانه بفعل الشعور بالقوة وبالعدوى والتلقين ، يفقد قدرته على السيطرة على ارادته وتجرف مشاعره المتأججة كل مقاومة يبديها عقله وفكره ·

ومن هنا كانت مشاعر الجماعة دائما متسمة بالعنف والغلو في أي اتجاه مالت اليه ، خيرا كان أم شرا ، حسبما تتعرض له من مثيرات ، ووفق التلقين الذي يعين اتجاهها ·

ومن هنا أيضا كان صوت العقل والمنطق خافتا متواريا في خضم تدفق المشاعر وحدتها ، وكان حظه ضئيلا في توجيه الجماعة وقيادتها ·

ولعل هذا يفسر لنا كيف تستطيع النظم السياسية حتى الآن بما تملك من وسائل التوجيه والاعلام ، أن تعبىء الجماهير ، وتثير مشاعرها ، وتدفعها الى العمل وفق ما تريد ، بما توجهه اليها من تلقين مرسوم قد أحكمت صياغته فلا يلبث أن تنشب أفاعيله في النفوس ، ويحدد اتجاه مشاعرها ويطغى على كل ما لدى أفرادها من قدرة على النقد والتبصر ·

واننا نشاهد العداء ينشب بين الدولتين المتجاورتين لا يفصل بينهما سوى خط حدود وهمي ، وقد يلتقي فرد من احدى الدولتين بفرد من الدولة الأخرى فيولي كل منهما ظهره للآخر ، ولا يدع لصاحبه فرصة لاقناعه بوجهة نظره ، فقد يكون الحق مع أحدهما فيتبعه الآخر ، وقد يكتشفان بعد المناقشة أن الأمر لا يعدو أن يكون لعبة سياسية ، يدفع اليها طموح الحاكم ورغبته في فرض نفوذه ، وأنه يسخر شعبه في تحقيق مطامعه ، ولكن لا سبيل الى شيء من ذلك ، لأن كلا منهما واقع تحت تأثير روح الجماعة التي لا تدع لعقله مجالا للنقد والحكم على الأمور والأعجب من ذلك أن الأزمة بين الدولتين قد تنتهي الى لا شيء ، أو تستجد ظروف ترى معها القيادة السياسية تغيير موقفها ، فتعمد بايحاء جديد مرسوم ومقدر أيضا الى هذه المشاعر فتنهنه حدتها ، أو تحولها الى الاتجاه المغاير تماما لمسارها ، فيتقابل هذان الفردان عينهما ، ويتعانقان في بلاهة ، وكأنهما دميتان تحركهما خيوط سحرية تمسك بها أيد خفية ·

وليس معنى ذلك أنه ليس هناك مجال للعقل فى توجيه الجماعة ، فهناك قطعا الأفراد المتازون الذين تستعصى عقولهم على كل تأثير يراد له أن يحجب بصيرتها • كما أنه لابد أن يكون التلقين الأول ـ الذى يراد به اثارة الجماعة ـ ذا صبغة مستساغة ، لا تصطدم مع ما تدركه بداهة العقل ، كى يجد لـه طريقا ينفذ من خلاله الى النفوس فيؤجج مشاعرها • ولكن ذلك كله لا يضع العقـل والفكر فى المقام الأول بين العوامل المؤثرة فى الجماعة •

● خيال الجماعات :

الخيال جزء من الفطرة الانسانية ، وهو احـدى الملكات المركوزة فى النفس لتؤدى دورها فى الحياة ، فبه يوسع الانسان حدود العالم الذى يعيش فيه ، « فلا فارق فى الاحســـاس النفسى بين الخيال والواقع حين يوجد كل منهما فى النفس ، كل خيال وجد فى النفس بالفعل ، فهو حقيقة شـــعورية نفسية تؤدى الى نتيجة فعلية : من غم أو فرح أو نشاط أو تقاعس • ومن ثم يعيش الانسان ، عن طريق الخـيال ، فى عـالم أوسع من العالم الواقعى المحدود » (١) •

وارتباط الخيال بالمشاعر والعواطف ارتباط وثيق محكم ، فالعواطف الثائرة والمشاعر الملتهبة لا تجد فى الواقع ما يفى بالتعبير عنها وتصويرها ، ومن ثم تلجأ الى الخيال ، فتجـد فيه الأداة الكاملة • كما أن الخيال مـن جهة أخرى سواء أكان ابتكاريا ، (وهو الذى يختار عناصره من بين التجارب السابقة ويؤلفها مجموعة جديدة) ، أو تأليفيا (وهو الذى يجمع بين الأفكار والصور التى تنتهى الى أصل عاطفى واحد) ، أو تفسيريا (وهو الذى يخلع على الأشياء الجامدة طبيعة انسانية تجعلها تحس وتتألم وتفرح وتتفلسف) ، هذا الخيال بكل ألوانه هو أهم الوسائل لبعث العواطف واثارة المشـاعر فى النفـوس ، وبالتـالى دفعهـا للعمـل والحـركة فى اطار ما توحى به مـن اتجاه (٢) •

وقد سبق أن أوضحنا أن الجماعة تمتاز بتدفق المشاعر وحدتها وأن صوت العقل فيها يبدو خافتا • ولذلك كان خيال الجماعة التصورى ذا استعداد

---

(١) دراسات فى النفس الانسانية • محمد قطب • دار الشروق ص ١١٧ •

(٢) انظر فى هذا فصلى العاطفة والخيال من كتـاب أصول النقد الأدبى للأستاذ أحمـد الشايب • ص ١٨٠ وما بعدها •

للتأثر العميق · وكان للصور التى يثيرها الخيال من الأثر البعيد ما للأمور الواقعية · والجماعات اذا لم تقدر على التفكير بغير الخيالات ، لا يؤثر فيها بالخيالات · ولذلك كان للتمثيل الروائى الذى يبرز الخيال على وجهه السافر تأثير عظيم فى كل حين ·

يقول جوستاف ليبون : « ولا شىء يقف الخيال الشعبى أكثر من الرواية التمثيلية ، فتعترى البهو روعة واحدة فى آن واحد ، واذا كانت هذه الروعة لا تخرج الى حيز العمل من فورها فلأن أكثر الحضور عدم شعور لا يجهل أنه ضحية الأوهام ، وأنه ضحك أو بكى بفعل مغامرات خيالية · ومما يحدث أحيانا ، مع ذلك ، أن تكون المشاعر التى توحى بها الأخيلة من القوة ما تنتقل به الى العمل كما يؤدى اليه التلقين غالبا ، ومما يروى فى ذلك قصة المسرح الشعبى الفاجعى الذى كان يضطر الى حماية الممثل الذى مثل دور الخائن عند خروجه من المسرح انقاذا له من عنف الجماهير الذين أغضبتهم جرائمه الخيالية » (١) ·

واذا كانت الجماعات بهذه المثابة : من حدة فى المشاعر ، وخفوت فى صوت العقل ، وتحليق فى الخيال ، فما هى وسائل التأثير فيها ، والوصول الى استمالتها واقناعها ؟

ذلك ما سنوجزه فيما يلى ·

***

عوامل التأثير فى الجماعات

● **التعامل مع النفس البشرية بكل جوانبها :**

لا شك أن هدف الدعوة هو الوصول بالمدعو الى الايمان بها ، ايمانا لا يقف عند حد التصديق والاقتناع العقلى بما تعرضه من أفكار ، بل يتعدى ذلك الى اطمئنانه النفسى الذى يحمله على العمل ـ بمقتضى هذا الايمان ـ وتقويم سلوكه فى الحياة ـ وفق ما يمليه عليه ايمانه من قيم ومثل ، وان خالف مقتضى الأهواء والشهوات والتقاليد والعادات ·

---

(١) روح الجماعات ص ٦٣ ـ ٦٤ ·

وفى هذا النطاق فان البيان والاعلام والأمر والنهى لا يكفى فى الحمل على الالتزام بالقيم الجديدة والعمل بمقتضاها ، اذا تعارض ذلك مع الموانع النفسية المتمثلة فى عواطفه وشهواته ، وفيما للتقاليد والعادات فى النفوس من أثر قوى لا يمكن مغالبته الا لأفراد قلائل ممن أوتوا ارادة صلبة وبصيرة نافذة · والدعوة لا توجه لهؤلاء وحدهم ، وانما توجه الى الجماعة كلها ·

ومن هنا كان لابد ـ لتثبيت الايمان فى القلوب ، ومنحه القدرة على مغالبة هذه الموانع النفسية ـ ألا نكتفى بجعله ايمانا عقليا باردا ، بل لابد أن يتحول الى ايمان وجدانى ، حاكم على القلب ، راجع على ما يخالفه من رغب ورهب وأمل وألم ·

ولن يتهيأ ذلك الا بأن نتوجه الى كل منافذ التأثير فى الانسان ، لنصل من خلالها الى ما نريده من جعل الدعوة فى قرار مكين ، وأن نغير بها النفوس قبل أن نغير السلوك ·

يقول الدكتور محمد رجب البيومى : « اذا كان القرآن الكريم قد أوتى ـ الاقناع المنطقى الملزم ، فانه لا يتجه بحديثه الى الفكر وحده فيلزمه الحجة مكتفيا به عن سواه ، اذ أن فاطر السموات والأرض يعلم أن المعرفة العلمية وحدها لا تكفى فى الانجذاب والتأثير ، فلا بد معها من غزو لمناطق الشعور، وبعث لكوامن العواطف ، حتى يتهيأ السامع اذا سمع ، والقارىء اذا تلا ، الى انجذاب نفسى يدفعه الى أشرف المبادىء وأحكم المثل · ولو كانت المعرفة وحدها كافية للهداية لكانت كتب العلوم الأرضية المخلصة دليل المهتدى ، اذا قرئت ودرست ولكنك تشاهد الناس يقرأونها مقتنعين ، ثم يحيدون عن أكثر ما تهدى اليه ، اذ أن العلم شىء ، والسلوك الانسانى شىء آخر · لذلك اتجه القرآن الى التأثير ـ الوجدانى بعد الحجة المقدمة ، ليغزو مناطق الشعور الانسانى بتصويره ، كما غزا مناطق التفكير العقلى بحججه ، فجاء التصوير البيانى فى القرآن الكريم آية الآيات فى الروعة والاعجاز » (٢) ·

والانسان سواء أكان منفردا أم فى جماعة يجمع فى طبيعته من الملكات المتعددة ما يجعل اهمال بعضها اهدارا لجانب من الطبيعة الانسانية خلقه الله تعالى ليقوم بدوره ، ويؤدى وظيفته ·

---

(١) البيان القرآنى ص ٧٨ دكتور محمد رجب البيومى ·

وحين اتجه علمـاء الكلام الى العقل وحـده ، ماذا كانت الثمرة التى جناها الاسلام من وراء جهودهم الخارقة التى ظلت قرونا وقرونا تبدىء وتعيد فى حجج عقلية باردة لا تثير وجدانا ولا تدفع الى عمل ؟

ان علينا أن نلتقى بالانسان فى قواه المختلفة ، وأن نتعامل معها جميعا ، نتعامل مع العقل بما له من قوة الادراك والتمييز ، ونتعـامل مع الوجدان باعتباره وعاء الأحاسيس والمشاعر التى تنشأ عن التأثير بما يسر ويؤلم ، ونتعامل مع الارادة باعتبـار ما تتخذه من قرارات هو النتيجـة النهـائية لاستجابتها أو رفضها للدعوة · ذلك أن الصفات النفسية للانسـان مرتبط بعضها ببعض ، ويؤثر بعضها فى بعض · والايمان هو حالة نفسية ، مرتبط بالجوانب النفسية كلها ، يتأثر بها ويؤثر فيها ·

يقول الدكتور محمود حسب الله : « فالعقائد الدينية لا تعتمد على جانب واحد من جوانب الحياة النفسية للانسان ـ الوجدانية والارادية والعقلية ـ ولكنها تتصل بها كلها اتصالا وثيقا ، ولا ترضى نفس المرء ولا تكتمل شخصيته الا اذا تضامنت شخصيته ونواحيه النفسية كلها ، وعملت معا على تقبل كل عقيدة من عقائده ، فلا يوجد شىء من التضارب بين قواه المتعددة ، حـول عقيدة من العقائد ، بل انسجام ووئام · فيوجد قبول عقلى ، واطمئنان قلبى ، والتقاء مع الارادة ، وذلك هو كمال الشخصية وكمال العقيدة » (١) ·

ثم يقول : « وما دامت العقائد الدينية متصلة بكل من العقل والوجدان والارادة ، احتاجت ، فى وسـائل نشرها ، الى الاعتمـاد عـلى كل هـذه القوى » (٢) ·

وما دام هذا شأن من توجه له الدعوة وطبيعته ، فلا بد لنا ـ كى نصل الى التأثير فيه ـ أن نلاحظ طبيعته بكل جوانبها غير أن الفرد فى جمـاعة يواجه واقعا يحدث فى طبيعته بعض التعديل · حيث ينشط جانبه الوجدانى ، بسبب تفاعله مع الجماعة ، واستهوائها له ، وسيطرة روحها العامة عـلى ملكاته الخاصة كما سبق الحديث عن ذلك ·ومن هنا يأتى الحديث عن الوسائل الخاصة للتأثير فى الجماعات باعتبارها تضفى على الطبيعة صفات مميزة · اذ ترهف المشاعر ، وتخدر الفكر ، وتطلق عنان الخيال والأوهام ·

---

(١) الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ ·

(٢) الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية ص ٢٧٤ ·

● **الأسلوب التصويرى :**

وأول وسائل التأثير فى الجماعات وأبعدها أثرا هو الصورة ، الصورة الموحية التى تترك فى النفس انطباعا وجدانيا ، يمثل فيها دور الشرارة الأولى التى لابد منها فى احداث الحركة والانفعال · هذا الانطباع يوقظ فى النفس جذوة من الأحاسيس مناسبة له ، تسير فى اتجاه ما يوحى به ، سرورا كان ذلك أو ألما ، رضا أو رفضا ، بشاشة أو اكتئابا ، ترحيبا أو نفورا · ويظل هذا الانطباع يؤدى وظيفته فى توجيه قوى النفس ، وايقاظ المشاعر ، وتفجير القوى اللازمة لتحويل هذا الشعور الى عمل ، وترجمته الى سلوك · فوراء كل عمل انسانى دافع نفسى من هذا الطراز ·

واذا لم تكن الصور لدينا فى كل وقت ، أمكننا أن نستحضرها باستعمال الألفاظ ، والصيغ استعمالا بارعا يؤدى دور الصورة ان لم يرب عليه ·

يقول جوستاف ليبون : « الحق أن الألفاظ والصيغ اذا استخدمت بحذق اتفق لها من السلطان الخفى ما عزاه اليها المؤمنون بالسحر فيما مضى ، ولو جمعت عظام من ذهبوا ضحية سلطان الألفاظ والصيغ لأمكن أن يقام منها هرما أعلى من هرم خوفو القديم » (١) ·

وتكمن قدرة الألفاظ على التصوير فى أن لكل لفظ الى جانب دلالته اللغوية دلالة أخرى شعورية تتمثل فيما يوحى به اللفظ من الصور والظلال وما يبثه من موسيقى خاصة وايقاع متميز · وبالنجاح فى استغلال طاقة اللفظ اللغوية والايحائية ، نستطيع أن نصور المعانى ، ونجسم الأفكار ونشخص الأشياء ، ونرسم بالألفاظ لوحات ذات أبعاد واضحة يتملاها الوجدان ببصيرته ، فينفعل بها ، ويتأثر بوحيها ، ويستجيب لهتافها ·

اذن فسلطان الألفاظ والصيغ مرتبط بما تثيره من الصور ، وما تبثه من ايحاء ، وهو شىء مستقل عن معناها اللغوى ، زائد عليه ، وان كان كل منهما يعضد الآخر ويؤازره · والعالم أو الفيلسوف حينما يستخدم الألفاظ يحاول أن يجردها من كل طاقاتها الشعورية ، وما توحى به ، ليحتفظ لها بدلالتها الذهنية التجريدية ، حتى يضمن وضوح الدلالة وثبوتها · فالمعنى

---

(١) روح الجماعات ص ٩٦ ·

اللغوى ثابت لا يتغير ، أما المعنى الشعورى فمتغير ، لانه يكتسب كل يوم ملابسة شعورية جديدة تضاف الى رصيده ٠

ومن هنا كان الاسلوب التصويرى هو المتفرد بالقدرة على التأثير فى المشاعر ، والوصول الى أعماق النفس البشرية ، محركا لكوامنها ، مؤججا لقواها ٠

يقول فضيلة الدكتور أحمد موسى : « من أسباب تأثير التشبيه فى النفوس أنه ينقل النفس من الخفى الى الجلى » ٠ وايضاح ذلك أن كثيرا من التشبيهات ينقل النفس عن المعقول الى المحس ، وعما يعلم بالفكر والروية الى ما يعلم بالاضطرار والطبع ، وذلك يوفر لها الانس بالمعنى ، ويملؤها ثقة به ٠ واطمئنانا اليه ، ومرجع ذلك الى سببين :

أولهما : ان العلم المستفاد من طريق الحواس ، أو جهة الطبع والضرورة ، يفضل العلم المستفاد من جهة العقل والفكر : فى القوة والاستحكام وبلوغ الثقة فيه غاية التمام ، كما قيل : « ليس الخبر كالعيان ، ولا الظن كاليقين » ، وكما روى « ان الله تعالى أخبر موسى بما صنع قومه فى العجل فلم يلق الألواح ، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت » ٠

وثانيهما : ان العلم المستفاد من جهة الحواس ، أو من الطبع والضرورة ، أسبق الى النفس من العلم المستفاد عن طريق العقل والروية لأن العلم يجىء أولا عن طريق الحواس والطباع ، ثم من جهة العقل والفكر فكل من الحسى والضرورى أمس بالنفس رحما ، وأقوى لديها ذمما ، وأقدم صحبة ، وآكد حرمة »(١) ٠

وما ذكره أستاذنا الدكتور أحمد موسى يلقى أضواء قوية على خصائص الاسلوب التصويرى وأثره فى النفس ، ويجعل منه أداة التعامل معها ، ووسيلة الوصول الى أعماقها ٠

ويؤكد هذا أن القرآن الكريم يؤثر الاسلوب التصويرى من بين الأساليب فى دعوته الى مبادئه ، كما سندرس ذلك تفصيلا ، لأن صياغة المبادىء فى صورة قوانين ونظم محكمة ، تعبر عما تريد تعبيرا عقليا جافا

---

(١) بتصرف من البلاغة التطبيقية ص ٩٤ وما بعدها لفضيلة الدكتور أحمد موسى ٠

مجردا عما يرغب فيه ويشحذ الهمم الى اعتناقه غير مجد فى قيادة الجماعات والتأثير فيها ٠

« فالانطباعات النفسية التى تحدث فى الجماعات هى التى تستهويها »(١) ٠

« هناك من يعرض معانيه عرضا نظريا محضا ، لا هم له الا أن يستوعب العلل والمعلولات ، ويتعمق فى التفكير التجريدى ليحيط بالكليات والجزئيات ، وهذا منهاج لا تحرك به الجماهير ، ولا تثار به النهضات فالداعية حقا هو الذى يواجه الواقع العملى ، ويصلح بسنة الله ما شذ عن سنة الله ٠ فالله سبحانه حين عرض علينا الحقائق ـ عرضها عرضا عمليا محسا، ولم يعرضها عرضا نظريا ٠ فقدرته مثلا لم يحدثنا عن كنهها وكيفها ، وعن أسرارها الخفية ، ومعانيها التجريدية ، بل عرضها عرضا سافرا فى مخلوقاته ، فأنت تراها فى البحر والجبل ، والزهر والشجر ، والشمس والقمر ، ونحو ذلك مما تقع عليه العين فى الأرض والسماء » ٠

« فهؤلاء المتعلقون بالنظريات المعنة فى الفروض ، يفسدون أنفسهم حين لا يسايرون قوانين الحياة ، ويحاولون أن يفسدوا على الناس نظام طبيعتهم السهل ٠ والداعية يريد أن يهدى الى حضارة جديدة ٠ ويدعو الى فضائل ويصد عن رذائل ، فعليه أن يتبع سنة الله فى عرض المعانى ، ويعرضها فى صور عملية تمشى على قدمين ، وتسعى على الأرض ، وتؤثر فى الناس فذلك هو السبيل الوحيد الى بث الحياة فى القلوب ، وبث الحركة فى العقول »(٢) ٠

● التوكيد والتكرار :

التوكيد من أهم الوسائل فى تثبيت المعنى فى القلوب ، وبثه فى النفوس وحملها على التصديق والايمان به ٠ « ولا يكون التوكيد ذا نفوذ حقيقى الا اذا دام تكراره بعبارة واحدة ما أمكن » ٠ « والأمر اذا ما أكد انتهى بالتكرار الى الرسوخ فى النفس على أنه حقيقة ثابتة »(٣) ٠

---

(١) انظر روح الجماعات ص ٢٢ ٠

(٢) بتصرف عن كتاب تذكرة الدعاة ، للاستاذ البهى الخولى ص ٤٣ ـ ٤٤ ٠

(٣) روح الجماعات ص ١١٥ ٠

ولا شك فى أن التوكيد والتكرار لهما أثر كبير فى النفوس • وهـذا شىء هديت اليه فطرة الانسان ، فلجأ الى تأكيد كلامه للسامع وتكرار مايريد نقله اليه ، لما رأى من أثر ذلك فى تثبيت المعانى وتأكيد الأفكار لديه •

غير أن التكرار له فى نفس الجماعة أثر أكبر منه فى نفوس الأفراد وذلك لما سبق بيانه من أن نفسية الجماعة تكون أشد تأثرا ، وأسرع تصديقا لعدم احتكامها الى العقل فيما تأخذ وتدع ، لخفوت صوت العقل لديها فى خضم المشاعر المتدفقة ، فلا تشغل بالها كثيرا بتبين نصيب ما يكرر عليهـا من الصدق أو الكذب •

« والأمر اذا يكرر لم يلبث فى الحقيقة أن يستقر فى مناطق «اللاشعور» العميقة ، حيث تنضج عوامل سيرنا ، ونحن اذ ننسى مصدر الزعم المكرر بعد انقضاء بعض الزمن ، لا نلبث أن نؤمن به • وبهذا تفسر قوة الاعلام العجيبة » (١) •

ولعل ذلك يفسر لنا لجوء الزعمـاء الى هـذا الأسلوب للتأثيـر فى الشعوب ، وحملهم على الايمان بسياساتهم ، وما الشعارات التى يصوغها الحكام وزعماء الأحزاب ، ويظلون يلوكونها صباح مساء ، الا استغلالا لهذا الاسلوب فى التأثير على الجماهير •

« والقرآن الكريم استخدم التوكيـد وسيلة لتثبيت المعنى فى نفوس قارئيه ، واقراره فى أفئدتهم ، حتى يصبح عقيدة من عقائدهم • وقد يكرر القرآن الجملة المؤكدة عدة مرات بألفاظها نفسها ، علما منه بما لذلك من أثر فى النفس » (٢) •

ومن ذلك ما نراه من تكرار جمل بعينهـا فى بعض السور عقب كـل آية مثلما نقرأ فى سورة القمر قوله تعالى : « **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر** »(٣) •

وكما نجد فى سورة الرحمن : « **فبأى آلاء ربكما تكذبان** » • ومن ذلك أيضا ما نراه من تكرار للآيتين التاليتين خمس مرات فى سـورة الشعراء

---

(١) روح الجماعات ص ١١٥ •
(٢) من بلاغة القرآن ـ الدكتور أحمد بدوى ص ١٤٣ ـ ١٤٤ •
(٣) القمر : ١٧ •

دون أن يغير من ألفاظها حرفا واحدا · فقال على لسان بعض رسله صلوات الله عليهم : « **فاتقوا الله وأطيعون · وما أسألكم عليه من أجر ، ان أجرى الا على رب العالمين** »(١) ·

كما نرى القرآن الكريم يؤكد صفات الله : « **ان الله على كل شيء قدير** » ، « **ان الله بما تعملون بصير** » ، « **ان الله واسع عليم** » ·

كما يكرر مؤكدا وعده ووعيده فيقول :

« **ان الله مع المتقين** » و « **ان الله يحب المتقين** » ·

« **ان الله لا يحب الكافرين** » و « **ان الله لا يهدى القوم الكافرين** » ·

وكل هـذه الألوان من التوكيد والتكرار ، انما هى أسلوب نفسى يؤدى دوره الأدبى فى التأثير الوجدانى · وهو عدة الداعية فى تبليغ الدعوة ·

ولعل هـذا أيضا يفسر لنا ما انتدب اليه المؤمنون من دوام ذكر الله : « **الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم** »(٢) ·

● **الحجـة العقلية :**

قلنا عند الحديث عن عوامل التأثير فى الجماعة : « ان علينا أن نلتقى بالانسان فى قواه المختلفة وأن نتعامل معها جميعا »(٣) ·

والعقل هو أحد هـذه القوى ، ولكننا فى مجال تأثيره فى الجماعة لا يجب أن نمنحه فوق ما يستحقه · وان كنا نسلم بأن له دورا يقوم به ، متعاونا مع الجوانب الأخرى فى الطبيعة الانسانية · وما نريد تسجيله هنا عن تأثير الحجج العقلية يمضى بنا فى اتجاهين :

أولا : ان طبيعة التكوين النفسى للجمـاعة تجعـل العقل فى مؤخـرة ما تحتكم اليه ، وما تنقاد له فى سلوكها ، فقوة مشـاعرها وتمكن الآراء

---

(١) الشعراء : الآيات : ١٠٨ ـ ١٠٩ ، ١٢٦ ـ ١٢٧ ، ١٤٤ ـ ١٤٥ ، ١٦٣ ـ ١٦٤ ، ١٧٨ ـ ١٧٩ ·

(٢) آل عمران : ١٩٢ ·

(٣) انظر ص ٣١ من هذا البحث ·

البالية المتوارثة من وجدانها ، واستعدادها الفطرى للاستهواء والتلقين ، كل ذلك يمثل حاجزا حصينا دون وصول صوت العقل والمنطق اليها ، لأنها لا تتأثر الا بما يلمس وجدانها ويثير خيالها ٠

« فالجماعات هى التى يخاطب الخطباء مشاعرها ، لا عقلها ابدا ، والجماعات هى التى لا تأثير لسنن المنطق العقلى فيها » ، « ولا يستطيع رجال المنطق الذى تعودوا البراهين المتسلسلة الوثيقة أن يعدلوا عن طرائق الاقناع هذا حينما يخاطبون الجماعات ، وهم يحارون عندما يرون عدم تأثير أدلتهم على الدوام »(١) ٠

ولعل هذا يفسر لنا ما يقوله أرسطو : « ان الخطباء غير المثقفين اقدر على اقناع الجماهير من الخطباء المثقفين ٠٠ فالأولون أبرع فى فن القول أمام الجماهير ، لأنهم يصوغون الأفكار العامة المشتركة من موضوعات معارفهم ، فتأتى معارفهم قريبة من الجمهور » (٢) ٠

ولكن ذلك كله لا يعنى تنحية الحجج العقلية تماما عن عوامل التأثير فى الجماعة ، ولكنه فقط يؤكد ضرورة أن تصاغ هذه الحجج العقلية فى أسلوب يجمع بين ما يحرك الفكر ويثير الوجدان فى وقت واحد ٠ ولعل تعبير « المنطق الوجدانى » يعبر بدقة عما يجب أن تكون عليه الحجج العقلية فى مخاطبة الجماهير ٠

« فالخطابة والمنطق يشتركان فى طرق التقرير والبرهنة والتفنيد ولكن المنطق يستخدم على الأخص للوقوف على قيمة التعريفات فى ذاتها وفى خصائصها وعوارضها ، وبهذا يمكن أن يكون أداة للمعارف العلمية فلا أثر فى المنطق لمزاعم الجماهير ، بل السير فيه وراء هذه المزاعم خطأ محض ، على حين تنظم الخطابة بالمنطق مادة موضوعها ، وتسوق حججها بحيث تكون ذات أثر فى جمهور معين ، ولابد من الملاءمة بين العبارات والحجج وملابسات الجمهور »(٣) ٠

---

(١) روح الجماعات ص ١٠٤ ـ ١٠٥ ٠
(٢) الخطابة ، أرسطو ، الكتاب الثانى ص ١٣٩٥ ٠
(٣) انظر النقد الأدبى الحديث ص ٩٩ ـ ١٠٠ دكتور محمد غنيمى هلال ٠

والقرآن الكريم هو القمة التى لا تطاول فى هـذا الجانب ، كما سندرس ذلك ـ ان شاء الله ـ عند الحديث عن أسلوب الجدل فى القرآن ٠

ثانيا : ان العقل على ما له من فضل واقتدار جعل منه عنصر الامتياز الذى اختص به الله الانسـان وكرمه ، فانه فى ذات الوقت له مـداه الذى لا يمكنه أن يصل الى أبعد منه ، وله قدرته التى لا يتعداها ٠٠ فاذا كنا نلقى اليه الزمام طائعين فى كل ما يتعلق بأمور الحياة المادية ونسـلم له بالفضل فى بناء الحضارة المـادية ، فان استقراء التاريخ الفكرى النظرى البحت يثبت أن العقل قد عجز عجزا تاما فى هـذا المضمار ، ولم يتمكن من القيام بدور مثمر فيه ٠

يقول الدكتور عبد الحليم محمود : « ان كل من يدرس تاريخ الفكر البشرى يلاحظ أن المسائل العقلية البحتة التى طرحت للبحث العقلى فى العصور القـديمة ، هى نفس المسـائل التى طـرحت للبحث فى العصـور الوسطى ، وهى نفس المسائل التى تطرح الآن للبحث ٠

ان مسائل ما وراء الطبيعة ومسائل الأخلاق مازالت كما كانت مجالا للبحث ، انها لم تتقدم خطوة واحدة نحو الحل ٠ ومازال الخلاف مستمرا بنفس الحـدة التى كانت فى القرون السابقة للميلاد ٠

وقد حاول القدماء كما حاول المحدثون اختراع مقياس فيصل للتفرقة بين الحق والباطل ، ومن أشهر المقاييس القديمة ما اخترعه أرسطو تحت عنوان « المنطق » ٠

ولكن هـذا المنطق لم يعصم فكر المخترع نفسه عن الضلال ٠ ولقد برع فى المنطق كثير من المفكرين القدماء ، ومن مفكرى الاسلام ٠

لقـد برع فيه الكنـدى والفارابى وابن سينا ٠ بل لقد برع فيه الامام الغزالى براعة كبرى ، وبرع فيه فلاسفة الاسلام الغربيون مثل : ابن باجه ، وابن طفيل ، وابن رشـد ٠

وهؤلاء جميعـا اختلفوا ـ اختلافا جـذريا ـ فى آرائهم ونزعاتهم فما الحق فى آراء هؤلاء ، وما الباطل ؟

ان منطق أرسطو وقف عاجزا عجزا تاما عن بيان الخطأ والصـواب فى آراء هؤلاء المنـاطقة ٠

الام يرجع هؤلاء للتثبت من آرائهم ؟ انهم يرجعون الى أدلة عقلية ، يسهل جدا هدمها بأدلة عقلية ، كما يسهل جدا هدم الهدم ٠

لقد قام الغزالى بعمل عظيم ممثلا فى كتابه « تهافت الفلاسفة » انه فى هـذا الكتاب هـدم آراء الفلاسـفة ، رأيا رأيا ، فانهـارت تحت قلمه وسقطت فى ضـوء بيانه ٠

وقد استغرق هـذا الهدم ما يقرب من خمسة وتسعين فى المـائة من الكتاب ، أما الخمسة فى المـائة الباقية فقد أبان فيها الامام الغزالى الأساس الذى قام عليه الكتاب ، وهو بيان أن العقل الانسـانى لا يتأتى له فى عالم الالهيات والأخلاق ، الا ظنون لا تصل الى اليقين وأن ذلك العقل غير مؤهل للبحث فيها ٠

ومضى الزمن فى طريقه بعد الغزالى ، حتى نشأ ابن رشد ، فأخـذ يهدم آراء الغزالى فى نقد الفلاسفة ، وكان أبرع رد على ابن رشد أن عمله هـذا انما كان تأييدا للامام الغزالى أكثر مما كان هدما له وأن كل من يتأمل قليلا فى الموضوع ، يرى أن رأى الامام الغزالى هو أن العقل الذى يبنى هو العقل الذى يهـدم ٠

ويمضى ابن رشد ، فيجىء « ديكارت » ويزعم أنه اخترع مقياسا للفصل بين الخطأ والصواب ٠ وكان منهج « ديكارت » أملا عذبا ، ولكن البحث أظهر أنه سراب وليس بمـاء ٠

وانتهى الأمل فى « ديكارت » ، كما انتهى فى « أرسطو » ٠ وبقيت المسائل التى بحثت قبل الميلاد كما كانت ـ ظنية ـ مجالا للبحث ـ مختلفا فيها ـ والآراء فيها متعارضة . بين انكار مطلق ، واثبات مطلق ـ عجز العقل عن الحمل عليها ـ وعن الوصول لليقين فيها »(١) ٠

اذن فهـذا هو مجال العقل ، وتلك هى حدود قدرته : نجاح مذهل فى الجـانب المـادى ، يقابله اخفـاق فى الجانب النظرى ٠ فما مغـزى ذلك كله ؟ وما الموقف السديد للداعية ازاء هـذا العقل ؟

ان هـذا الموقف تحدده طبيعـة الدعوة ٠ والدعوة ترمى الى تغيير واقع انسـانى لا ترضى عنه ٠ وهـذا التغيير يقوم على أسس فكرية وعلى

---

(١) بتصرف من كتاب « التوحيد الخالص ٠٠ أو الاسلام والعقل » ص ٥ ، ٦ ، ٧ ٠

عقائد وقيم · ووسيلة هـذا التغيير ، هى الوصول بالنفس الانسانية الى الايمان بهـذه العقائد والقيم الجديدة ، ايمان فعال ، يدفع الى العمل ، ويوجه السـلوك فأين دور العقل فى هـذه المهمة ؟

لقد أثبتنا من خلال دراستنا لنفسية الجماعات انها لا تلقى بالا للعقل المجرد واقيسته المنطقية · كما اتضح أيضـا أن العقل ـ حتى مع خـاصة الخاصة من الفلاسفة والمفكرين ـ لم يصل بهم الى اليقين الذى يعتبر أساس الايمان · فهل معنى ذلك أن ينسحب العقل نهائيا من ميدان الدعوة كالقائد المنهـزم ، ويدع الأمـور لغيـره من القـادة يدبرون أمـرها ؟ والجـواب بالتأكيد : لا ·

فان العقل مع ذلك كله مازال له دور هناك يؤديه ، ويجب أن يؤديه · فاذا كان العقل قد عجز عن الوصول الى اليقين فى قضايا الدعوة · فانه لم يعجز عن الوصول الى الظن المرجح ، والى ادخـال المسألة فى نطاق الممكن الذى لا يجب رفضه · ويكفى العقل أن يصل بنا الى هـذا الحـد ، ويترك الباقى للجوانب الأخرى من الفطرة الانسانية لتكمل المسيرة ، وتصل بالركب الى بر الأمان ·

وعند هـذا الحـد تنهض البصيرة ـ التى هى ثمرة الوجدان ـ كى تصل بالأمور الى منتهاها ، وتبلغ ذروتها ، ولعـل ذلك يعيننا على ادراك ما يعنيه الامام الغزالى بقوله . واصفا حاله التى انتهى اليها باليقين بعد الشك والتردد : « لم يكن ذلك بنظم دليل ، وترتيب كلام بل بنـور قذفه الله تعالى فى الصدور » ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ولمـا سئل رسول الله ﷺ عن « الشرح » ومعناه فى قوله تعالى : « **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسـلام** »(١) ·

قال : « هو نور يقذفه الله تعالى فى القلب »(٢) ·

★★★

---

(١) الأنعـام : ١٢٥ ·

(٢) المنقذ من الضلال للامام الغزالى ص ٩٣ ·